

الفلاح كيف يرقى ؟

للاستاذ عبد الحميد إبراهيم صالح -

جالت في أمر الفلاح أقلام الكتّاب وعقول المفكرين . وأرى من واجبي كفلاح ،
ميراثاً ومولداً وبيئة ودراسة وعملاً ، أن أعالج هذا الموضوع وأن أتحدث عن طلل الفلاح
وطريقة علاجها .

ويمحسني قبل أن أخوض في بحثي ، أن أقسم الفلاحين الى طبقتين : الأولى طبقة
أصحاب الأرض الواسعة والضياع المترامية ، والثانية طبقة الأجراء الفقراء الذين يكسحون
لغيرهم ، ويعملون لراحة الأثرياء المترفين .

أما الأولون وهم الأغنياء فقد أصابهم مع الأسف أمراض اجتماعية دفعهم اليها التقليد
الاعمى وحب الترف والدعة ، فهجروا قراهم نازحين الى المدن ليستمتعوا بالمذات ، ويرضوا
الشهوات ، وهم بذلك يفارقون معين سعادتهم ومصدر نعمتهم ، ويدعون مواطنهم من صغار
الزراع مهمالين لا مرشد لهم ولا معين ، ويظلمون غافلين عن أملاكهم لا يراقبون ادارتها
ولا يستطيعون حمايتها من العبث والفساد .

ولا شك أن إقامتهم في المدن ، تكلفهم باهظ النفقات ، كما أن تركهم أمور
القرية والزراعة تجرى في أعتما ، ينتهي الى ضعف الانتاج وتضاؤل الدخل ، ووراء ذلك
ما وراءه من استدامة مرهقة وتعرض لمخاطر كثيرة واستهداف للزراع ملكيات ، ولا شك أن
أثر هذا الارتباك لا يقتصر على هؤلاء الحق من الملاك بل يتناول ضامنهم والمتعاملين
معهم ، ثم يمتد الى أولادهم وأعتابهم فيستقبلون الحياة فقراء بأنسين حائرين ، ومن هنا
نرى كيف تفسد حياة أبناء الأعيان ، وكيف ينشأ منهم شريدون ومجرمون .

وعلاج هؤلاء الأعيان المهاجرين سهل ميسور اذا استطعنا بالنصح والإرشاد أن نرددهم
الى ما تعودوه هم وآباؤهم وأجدادهم من التعلق بالريف وأهله ، والعناية بالحقل وشؤونه ،
والاعتماد على النفس في تسيير العمل وكسب الرزق ، والزهد في صخب المدينة وضوضائها
ومفاتها الباهظة النفقات ، وإيثار الحياة الهادئة بين الزرع والتفكير ، والشجر الظليل ، والأعشاب
والخيل ، وفي إناس الأبناء والأقرباء والأصدقاء ، وفي عزوة الخدم والحشم ، وفي وجاهة
الضيافة والكرم ، ووسط أسباب القوة والصحة من هواء نقي وشمس صاحبة وتبكير بالنوم
ومصاحبة للشمس في إشراقها .

ذلك هو العلاج الأول للأعيان المتبرمين بقراهم .

ولا بد لهم من علاج آخر هو أن نحسن القرى ونزقيها لتكون جميلة في أعينهم ، فتوجد لهم فيها ما هم في حاجة إليه لأنفسهم ولأولادهم ، إذ أن من أهم أسباب تشبثهم بالمدن سهولة تعلم أولادهم في مدارسها وإمكان مراقبتهم بها خلال الدراسة ، فيجب أن تكفل لهم الطمأنينة من هذه الناحية بأن ننشئ لأولادهم وبناتهم رياض أطفال ومدارس ابتدائية وثانوية ذات أقسام داخلية في العواصم والبنادر القريبة ، وكذلك يجب إنشاء مساكن صحية للطلبة الجامعيين حتى إذا كبر التلميذ وأراد دخول الجامعة كان ولي أمره مطمئنا إلى أنه يمكن مع زملائه سكنا صحيا صالحا مريحا ، وإلى أنه محوط بمراقبة دقيقة مخصصة تصون خلقه ودراسه وجسمه ، وكذلك يجب أن توجد بجانب المدارس الإقليمية في القرى والخواضر مستشفيات كاملة المعدة من أشعة وتحليل كياوى وغير ذلك ، مع وجود الأطباء الاختصاصيين في كل فروع الطب الحديث ، حتى يكون الأحياء آمنين على مستقبل أبنائهم ، وعلى صحتهم وصحة أسرهم ، ويكون الريف كامل الأهبة لخدمة الأهالي .

وينبغي — إتماما لهذا البرنامج — أن يراعى في الترشيح للرتب والأوسمة مبلغ مواظبة الوجه على قرينته واهتمامه بها ومقدار عنايته بزراعته وجده في خدمتها ، وما بذل الوجه أو العين من ماله ومن جهوده لإقامة المنشآت التي ترقى الريف وتحسن حاله . ولنفرض ضريبة على الأعيان الذين بقوا هاجرين قراهم بعد كل هذه التدابير والمرغبات ، ولننفق هذه الضريبة في تجهيل القرية التي حرما هؤلاء من المساهمة في خدمتها .

ولنتكلم عن الطائفة الثانية من الفلاحين ، طائفة الأجراء الفقراء ، وهى السواد الأعظم ، والىا تحب أنظار المصلحين والباحثين ، وهى بيت القصيد في كل ما نقرأ ونسمع من بحوث ومحاضرات عنوانها " الفلاح " .

لقد أشرنا إلى أثر هذا الفلاح في تكوين الثروة وإثرائها ، ويجب أن ننوه بما يمتاز به فلاحنا المصرى من وداعة وصبر وقناعة .

فاذا شئنا أن نخدمه مخلصين ، وأن نزيح عنه كابوس البؤس والحرمان فلا بد من أن نعلم قبل كل شيء بحجمه الذى هو كل ثروته ، فنضمن له العافية ونؤمنه من الأسقام ، وذلك بأن نكون الوحدات الصحية التي تحارب الأمراض وتصون الأجسام وتحفظها سليمة قادرة على العمل والإنتاج ، ولا أعنى العمل في الزراعة وحدها وهى مصدر الرزق الأول لأبناء هذه البلاد ، بل أعنى أيضا العمل في الجيش إذ الجيش إنما يتكون من أولئك الفلاحين فهم الذين نعتد عليهم في الذود عن حياض الوطن ، كما أنهم هم الذين تتألف منهم قوى البوليس والحراس النظاميين الذين يسهرون على الأمن ويسألون عن حماية الأموال والأغراض والأرواح .

ومن أخص ما تعنى به هذه الوحدات الصحية ، أو الاجتماعية ، مراقبة الأماكن العامة كالمساجد والمدارس ، حتى لا تفزوها الأوبئة السريعة الانتشار ، كما تدخل في نطاق عملها المحافظة على نظافة القرية ، ونفى ما يتخللها ويحيط بها من أقدار ، وما تنشره المستنقعات وأكوام التراب من آفات ، ثم تعويد الفلاحين على شيء من النظام في حياتهم ، فإن فوضى السكن والنوم والملبس والأكل متحركة فيهم من قديم الزمان ، وكفى أن أكوام الحطب التي توضع على الأسطح هي أهم سبب للحرائق المدمرة ، كما أن روث البهائم الراكدة بجانب الفلاح أو في فناء داره هو من مسببات الحميات المختلفة ، وفي شربه الماء العكر ، وفي عرى رأسه وقدميه ما يسهل إصابته بالبلهارسيا والانكلستوما والروماتزم وغيرها من الأمراض القاتلة . ولو استخدم "الزير" المصنوع من الفخار والذي لا يكلفه غير قرش أو قرشين ، ولو وضع على رأسه غطاء يقيه الحر والبرد ، وحى قدميه من الوحل ومن الحوام ومن قطع الزجاج المبعثرة على الأرض لما أصيب بأمراض ولا جروح .

ولو استطاع أن يغطي جسمه هو وزوجته وأولاده عند النوم بغطاء نظيف مدفئ لما فتن به البرد القارس .

سيقول قائل : أتى للفلاح أن يؤدي لنفسه ولأولاده كل هذه المطالب وهو ضئيل الأجر محدود الرزق ؟ فنقول إن كثيرا من فلاحينا لا ينفقون أجراً القليل في ضروريات الحياة من ما كل وملبس ، بل يصرفون أكثر هذا الأجر في الكيوف والمخدرات ، كالشاي والقهوة والدخان وما إليها ، ولا يبقى بعد ذلك شيء يذكر ، فطبيعى أن يجوع ويعرى هو وزوجته وأولاده ، فما أحوجهم إلى النصيح الاجتماعي والوعظ الديني لينتهي عن هذا السفه ، ولا يؤدي أولاده بهذا العبث برزقه ، ولا يضعف جسمه بما يسلط عليه من كيوف مخرقة وما يكلفه من جوع منهك ، ولو أنه أبقى على جسمه واحتفظ بقوته لأعمال الحقل لأخرج محصولاً أوفر وهياً لئلا يخلو أكره ، فأعانه على أن يضاعف له الأجر ويزداد برا به واهتماماً .

قد رأيت أن الفلاح من جانبه يعمل على إقتار نفسه بما ذكرنا من سوء تصرفه ، ولكن لفقره وضآلة أجره أسباباً أخرى ككثرة الأيدي العاملة ، وسهولة الاقتراض والتدائن وما وراء هذه السهولة من اغراء له بالمضي فيما هو فيه من سفه وانفاق بغير حساب ، والدائن إذا حلت ساعة الحساب لم يرحم ولم يبق على شيء مما يملكه الفلاح المسكين أرضاً كان أو أثاثاً أو متاعاً أو حلياً أو غير ذلك فيضاعف ما يقاسمه من ضئلك وضيق وشقاء ، ومن حسن الحظ أن الحكومة عنت بسن قانون يحى هؤلاء من قسوة الدائنين .

ولو أن الحكومة عنت بإصلاح الأراضي البور وتوزيعها على الفلاحين لتوفر العمل والأجر الحسن لكل الأيدي العاملة ، ونظمت عملية الاقتراض بطرق رفيعة تبقى على ضروريات الفلاح .

ومن أحسن وألزم ما يفرّج عن فلاحينا هذا الكرب ، أن تنشأ لهم نقابات على مثال نقابات العمال الآخرين تدافع عن حقوقهم وتعمل على رفع مستواهم وتجمع بعض الأموال في صناديقها لتعين من نكبه الزمن ومن أقعده عن الكسب هرم أو مرض ، وتكون أموال هذه الصناديق بما يدفعه الفلاح بنسبة معينة من أجرة اليومى إن كان أجيرا ، أو من إيراده أن كان ممن يزرعون أو يستأجرون ، مضافا إلى هذا وذلك نصيب من الزكاة (ولا بأس من أن تكون هذه الزكاة جبرية كما اقترح صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا) وإعانة من الحكومة بحسب أهمية كل نقابة ، وبذلك تستطيع هذه النقابات أن تعين من صندوقها العامل العاقل مدة عطله ، وأن تدبر له عملا بعد ذلك ، وأن تواسى من مرض من أعضائها أو تقوم برعاية أطفال توفى عائلهم ولم يترك لهم شيئا ، وهكذا يكون ذلك الفلاح المنتج قد ظفر بالأمان على حياته ، وبالعدة لغدرات الزمان .

وتستطيع هذه النقابات استئجار بعض الأطباء لعمل عيادات في القرى التي ليست بها مستشفيات حكومية ، فيتداوى الفلاحون وأسره بغير مقابل أو بأجر زهيد .



هنالك ناحية اجتماعية ذات أهمية وخطر ، لا مفر من الالتفات إليها كلما تناولنا بالبحث شؤون الفلاح .

ذلك أن فلاحنا في أميته ووداعته وعدم اهتمامه من الحياة بشئ سوى الفراغ الضيق الذى يعيش فيه ، وعدم درايته بأحوال الأمم وتطورات العالم ، لا يزال قانعا بما حو فيه ، قليل الشكاية ، هادئا مستكينا إلى بؤسه وشقائه ، لكننا أخذنا في نهضتنا الجديدة نعلمه ونبصره بالحياة ، بفعلنا تعليم أولاده إلزاميا ، وأخذنا نكشف له عن حقائق الوجود وحقوق الإنسان وواجباته ، وصار يتلقى مختلف التعاليم فيما يسمع من إذاعات الراديو ، ومن خطب في الحفلات العامة ، وفيما تبشه الصحف والمجلات بين الأوساط الريفية من أفكار وأخبار ، فاذا نشأ الجيل الجديد من الفلاحين متعلما بصيرا بحقوقه ، وأخذ يجار بالشكوى من بؤسه وحرمانه ، ويطالبنا بنصيبه مما ينتج للبلاد من مال كثير ، ومما يهبه للبلاد والأعيان من أسباب النعم فما أجسم المشكلة التي يواجهها يومئذ مجتمعنا المصرى الهادئ الآمن ، وما أعسر رد الفلاح إلى الصبر والتمتعة والطاعة العمياء ، التي تعودها طوال الأحقاب ، وما أوجب تدارك الأمر من الآن والأخذ في إنصاف الفلاح دون إبطاء ولا إرجاء ، حتى إذا ما زالت غشاوة الجهل وفتح العلم عينيه وانتبه الفلاح إلى أمر نفسه وأمر أمثاله في الأمم المتحضرة وجد نفسه على حال ترضيه ، ولا تدعوه إلى تدمير أو شكاية ، ونكون قد حمينا مجتمعنا المصرى من هذا المشكل الجسيم .

وما دمتا قد ذكرنا تعليم الفلاح فاني أحبي الجهد الذي تبذله وزارة المعارف في تعليم الفلاحين ونشر المدارس بينهم ، والجهد الذي تبذله وزارة الشؤون الاجتماعية في تثقيفهم وتنوير أذهانهم ، وأقترح على وزارة المعارف أن تأخذ بالرأى السيد الذي يقول يجعل التعليم (إقليما) أى متمشيا مع لون الإقليم وعاداته ، ومشجعا للصناعات والمهن السائدة فيه .

بذلك — أى بنشر التعليم والثقافة — نهدم الجهل الخيم على الفلاحين ، وهو أصل ما هم فيه من بلاء وما في نفوس الكثيرين منهم من فساد أو من نزوع الى الإحرام .

وإذ كنت أعرف أثر الدين في تهذيب نفوس الفلاحين وعقولهم ونهيمهم عن البنى والمنكر فاني أرى أن طائفة ماذونى الشرع لو اختيرت اختيارا حسنا ، من بين علماء الأزهر المستكملين العلم ، والخلق ، ووفرة الاطلاع ، وجعلت ل هؤلاء العلماء بجانب ما يتقاضون على عقود الزواج ، مكافآت مكيلة لمطالبهم لكانت من أحسن العوامل في إصلاح حال الفلاحين ، فان هذا " الماذون " يمكن الانتفاع به لافى عقد الزواج وإثبات الطلاق وحسب ، بل فى إرشاد الناس ووعظهم ، ولا شك أن صفته الدينية تكسبه احتراماً وطاعة خصوصاً وهو بمعكم عمله خير بأسرار البيوت لم بعلاقات الأسر وأحوال الناس .

ومن أنجح الوسائل للتثقيف وتنوير الأذهان ، أن تغذى الحكومة القرى بأجهزة راديو يصتمع منها الفلاحون الى ما يخصص لهم من إذاعات دينية وزراعية واجتماعية ، ما دام انتشار الصحافة محدودا فى هذه النواحي ، وأن تكون هناك فرق طوافة بالسيارات تحمل أدوات لإذاعة التعاليم والنصائح الحكومية الاجتماعية والصحية ، وأن لا تصور لهم الآفات البدنية أو الزراعية وطرق علاجها ، ولا بأس بروايات قصيرة تمثل لهم صورا من مآسى الحياة أو موعظتها ، تضعها فى بعض الأحيان موسيقى أو غناء ، حتى تكون للفلاحين فى الوقت نفسه تسلية بريئة محبوبة فى خلال هذا الارشاد .

وهذا الارشاد الذى نطلبه من الحكومة ، لا نطلبه من الوزير وحده ، ولا من رسل الدواوين المخصصين لهذه المهمة وحدهم ، بل نراه واجبا على سائر الموظفين الذين تربطهم أعمالهم بالفلاحين . فلتكن للدير والمأمور والمهندس والطبيب والمدرس وغيرهم محاضرات دورية على الفلاحين ، كل فيما يسعه عمله واختصاصه ، هذا فى الأمن ، وذاك فى الرى ، وذاك فى الطب وذاك فى الزراعة ، وهكذا . نريد برا شاملا بالفلاح ، وتعاوننا كاملا على الإصلاح ، نريد جهدا مشتركا يساهم فيه كل مصرى حاكما كان أو محكوما ، صغيرا أو كبيرا ، وليس أنجح من جهد يتعاون عليه المخلصون ، ويتنافس فيه المتنافسون ما

عبد الحميد إبراهيم صالح